أبناء سبيل

حامد حسن

إلى روح

أنس سنهل

عاد الربيع بكل الهشة العبير ولم تعودي

حامد حسن

هاجر ــ أم سهيل

ــ ١ ــ

هل تسألين ــ على بعادِكِ ــ كيف حالُ أبي سُهيْلِ ؟؟
رقدتْ جفونُ الهانئين ، وضجَّ بالحسَراتِ ليْلي !!

جلّ المصابُ ــ مصابُ قلبي ــ فيكِ عن حسْنِ العزاءِ
هل تمسحنّ على نزيفِ جراحهِ كفُّ السماءِ

سيّانِ بعدكِ شامخاتُ القصر عندي ، والترابُ
ما نفعُ هذا القلبِ إن ماتت أمانيه العِذابُ ؟؟

عشنا معاً متوحّديْنِ على الهوى عمراً مديدا
والعيشُ كان ــ على بساطتِه ، كما شئنا ــ رغيدا

خمسون عاماً ، أو يزيد ، من المصاحبةِ النبيلهْ
لم يَدرِ حرَّ الشمسِ عصفوران دارهُما خميلَهْ

زوجٌ كأن الله ربَّ العطفِ ، لم يُبدِعْ سواها
تحنو على بيتي ، وأطفالي تزقُّهُما صِباها

بالأمسِ كان البيتُ يطفَحُ بالحياةِ ، وكان يزهو
وأنا بهِ كالطفلِ ، أعبثُ في جوانبه ، وألهو !!

سارت سفينتُنا وبحرُ العمرِ مضطربٌ وهادىءْ
لولاكِ ضَيّعتُ المرافِيءَ ، وابتعدتُ عن الشواطىءْ

الحُبُّ عندي في المشاعرِ ، والجوارح ، والعظامِ
وأراه ينبُع من عيونكِ ، وابتسامِكِ ، والكلامِ

كلُّ اختلافٍ كان أولَه ، وآخرَه عتابُ
وأجوزُ بالخطأِ الصوابَ ، وما تعدّاكِ الصّوابُ

إن ثُرْتُ أحياناً تطالِعني ــ مع العَتَبِ ــ ابتسامَهْ
فأخفّ معتذراً ــ وبي خَجلٌ ــ وتنقشعُ الغمامَهْ

عشنا ، وكنتِ مدى حياتِك كلَّ شيءٍ في حياتي
وأنا أنا حتى المماتِ ، وربما بعدَ المماتِ

علَّمتِني ، وأخذتُ عنك رويّةً ، وهدوءَ طبْعٍ
لو تشفقين عليّ كنتِ تركتِ لي بصَري ، وسمْعيَ

— ٢ —

وغداةَ أزمعتِ الرحيلَ إلى دمشقَ .. إلى الطبيبِ
كان الوداعُ من الأكفِّ ، من العيونِ ، من القلوبِ !!

ودّعتِني ، ومشيتِ نحوَ البابِ مثقلةً خُطاكِ
ونظرتِ لاهفةً إليّ ، وقد تندّتْ مقلتاكِ

ما كنتُ أعلم أن تلك النظرةَ الولهى نذيرَهْ
كانت تقول : ــ وكنتُ أجهل ما تقولُ ــ أنا الأخيرَهْ

ــ ٣ ــ

لا تسأليني كيف قامَت بالدُّرَيْكيش القيامهْ ؟؟
أوَ لمْ تريْها خيرَ أرضِ الله داراً للإقامهْ ؟؟

الشعبُ يزحم كلَّ منعطفٍ ، ويشغلُ كلَّ ساحِ
لو تبصرين وتسمعين ، هديرَ نازفةِ الجراحِ !!

الزاحفون إلى وداعكِ يملأون الدربَ سيْلا
وأنا وراءَهمُ ، وقد حملوا إلى «التوباد» ليلى

ضاقتْ بهم كلُّ الدروب ، إلى الضريحِ ، وكلُّ معبرْ
فذكرتُ يومَ العرس ... لكن كان عرسُ الموتِ أكبرْ

وقف البنونَ حِيالَ نعشِ الأمِ أربعةٌ ، وأربعْ
لو أن ما في صدرِ واحِدهم على جبلٍ تصدّعْ !!

هذا ضريحُكِ ؟؟ أم تلالٌ ، من أكاليلِ الوراد ؟؟
وأظنُ كفَّكِ راح بين الورْدِ يبحثُ عن فؤادي !!

نامي بظلّ السنديانِ ، وعندَ هسْهسَةِ السواقي
والله يعلم مالقيتُ غدَ الفراقِ ، ومنا أُلاقي !!

لم يدرْ غيرُ الله ما ألقى ، وما أخفي ، وأُبدي
أتسافرين منَ الحياة وحيدةً ؟؟ وأظلُ وحْدي ؟؟

ماذا أقول ؟ ولم يزُرْ جفنيَّ طيفُك في المنامِ ؟؟
ولأنتِ أرفعُ في الحياةِ ، وفي المماتِ عن الملامِ

هل تسمحينَ بأن يزورَ الطيفُ أجفاني لِماما ؟؟
فأنا اليتيمُ ، وصارَ كلُّ الناسِ في نظري يتامى

ما أوجعَ النكباتِ إن نزلت على غير انتظارِ
لاتعجبي إن رحتُ أبحثُ في النهارِ عن النهارِ

— ٤ —

يا ربةَ الكفِّ الندّيةِ ، والطهارةِ ، والضميرِ !!
من يُغدِقَنّ العطفَ بعدَكِ ، والحنوَّ على الفقيرِ ؟؟

تهَبين ما تجدين بين يديكِ من حاجٍ ، ومالِ
وأحبُّـــهُ للهِ ما تهَبينـــه قبـــلَ السؤالِ !..

أنا لا أمدُّ يديَّ بعد غدٍ لأفتتحَ الخزانهْ !!
تبقى ثيابُكِ ، والحليُّ على المدى عندي أمانهْ

لا أعتبنَّ على الزمان ، ولستُ أوسِعُه ملاما !!
أوَلم يكن أغضى ، وسالَمني مدى خمسين عاما ؟؟

لكنْ تنكّرَ لي على كِبَري ، وأرهقني ، وأشقى
لم يُبقِ لي أملًا أعيش لأجله ، فعلامَ أبقى ؟؟

فإذا طغى ، وبغى ، وعربَد ، واعتدى سأظلُ ساكتْ
والقولُ أبلغُ ما تُغيظ به العِداةَ وأنتَ صامتْ !!

ـ ٥ ـ

أنا في الدجا والبيتُ ـ كلُّ البيت ـ تغمرُه السكينَهْ
ترتادُه الأشباحُ ، متعبةَ الخطا ، مثلي حزينهْ

هجر اللّذاتُ مع الغداة ، نديَّه ، وانفضّ سامرْ
والدهرُ أخرسَني ، وكنتُ ـ كما يقول الناسُ ـ شاعرْ

أنا في الظلام ، وغامَ في قلبي ، وعينيَّ الضياءُ !!
هل تغضبين إذا سألتك : أين عدلُكِ يا سماءُ ؟؟

— ٦ —

بُعْداً ، وسوءَ غدٍ !! لمن ظلموك يا عبدَ المعينِ[١]
هل كلُّ من يشكو ظلامتَه ، يكون قليلَ دين ؟؟

لو أدركوا السرَّ الذي زرعتْه كفُّ الله فينا
لرأوْا بأنّا خيرُ مَن في الأرض أخلاقاً ودينا

الحبُّ كان ، وظلَّ فينا ، كالزمانِ بلا حدودِ
ولنا إذا ما ماتَ واحدُنا به أجرُ الشهيدِ !!

[١] الشاعر عبد المعين الملوحي

زرعتْ يمينُ الحبُّ حنجرةَ البلابلِ بالغناءِ
وأضاءَ حتى في ظلام اليأسِ مصباحَ الرجاءِ

كانت تمثِّلُ كلَّ شيءٍ عند شاعرِها بهيرَهْ !!
كانت أميرتَه ، أيُغفرُ ذنبُ من قتلَ الأميرَهْ ؟؟

أنا في شتاءِ العمر يا عبدَ المعين أضعتُ قلبي
ما كان ذنبُك في ربيعِ العمْرِ إلّا بعض ذنبي

كانت «بهيرةُ» في حياتكِ ، مثلَ «هاجرَ» في حياتي
واليوم بعدهما نعيشُ على مريرِ الذكرياتِ

يلتاع قلبك كلّما خطرَتْ يتيمتُها خُزامَى
وأنا مضتْ عني ، وأبقتهم ثمانيةً يتامى

فإذا أطلّت عندَ هادئةِ العشيةِ نجمتانِ
تتغامزانِ ، وتهمسانِ ، وتضحكانِ وتبكيانِ

وإذا تنهّدنا ، ومزّقتِ السكينةَ أنتانِ !!
فهما هما ، وأنا وأنت ، عشيقتان وعاشقان !!

* * *

— ٧ —

سأعلمُ الأزواجَ كيف يفتّشون عن الحقيقةْ ؟
وأقول : جدّي آدمُ المسكينُ لم يُخطىءْ طريقَهْ

ما بالُهمْ يتفلسفون ، ويبحثون عن الخطيئةْ ؟؟
لا تظلِموا حواءَ أمَّكمُ ، فأمُّكمُ بريئةْ !!..

لم ندرْ لولاها ، ولولا حبُّها معنى الحياةِ
والنورُ نورُ الله يُشرِق من قلوب الأمهاتِ

قيلَ : التأنقُ ، والتبرّجُ شاهدان على الغوايةْ
قلنا : هما هدفٌ يُراد بلوغُه ، ونبيلُ غايَهْ

والله ما اتّشحتْ بكل حُليّها إلّا لنرضى !!
ما ذنبُها إن كان بعضُ عقولِ هذا الشرقِ مرضى ؟؟

لا تنسِبنّ لها الغوايةَ ، أنت يا ابنَ أبيك أغوى
لم تكتبِ التاريخ إلا وفق ما ترضى ، وتهوى

— ٨ —

لي في ظلال السنديان ، وعند منعطفِ السفوحِ
روحٌ ترِفّ على الضريحِ ، لكيْ تعانقَ أختَ روحي

سأعيشُ إن طالت بي الأيامُ إنساناً معذّبْ
وأنا الذي أجِدُ العذابَ — عذابَ ذكراها — محبّبْ

— ٩ —

وغداً إذا جاء الشتاءُ ، سترجعين مع الشتاءِ
ما جئتِ عاصفةً ، ولكنْ صحوةً ، ونفيفَ ماءِ !!

وإذا الربيعُ رمى عباءتَهُ على فِيحِ الكرومِ
كنتِ السَّنا ، والعطرَ في الزهرِ الفتيحِ ، وفي الكميمِ

وتحولُ عندَ الصيفِ روحُكِ في عصير الكرمِ خمرَهْ
لا تعجبي أن تستحيل على فمي والقَلبِ جمرَهْ

وسترجعينَ مع الخريفِ سحابةً تمشي الهوينى
وأكاد أسمع همسَ صوتِك ، في الغمامة : ما نسينا !!

— ١٠ —

ماذا وراءَ القبرِ من عَدَمٍ يُقال : ومن خلودِ ؟؟
أنا جاهلٌ ، أعمى بكلِّ خفِّي أسرارِ الوجودِ !!

ماذا وراءَ القبر ؟؟ عندي ما أُضيقُ به سؤالا !
إن رحتُ أنزلِهِنّ إيماني ، يقول العقل : لا ، لا

من راح يُنكر ما يُقال ، فكيفُ يُثبِتُ ما يقول ؟؟
أنحولُ في صُوَرٍ — كما قالوا — أنبقى ؟ أم نزول ؟!

إن صحَّ أن المرءَ يرجِعُ في الطبيعةِ من جديدِ
هل ترجعين معي ، ولو في زهرتيْنِ من الورودِ ؟؟

ونعودُ في الغاباتِ وشوشةً ، وبَوحاً في النّسيمِ
ورجيعَ أغنيةٍ على أوتارِ شلّالٍ نغيمِ

أوْ نستحيلُ ، وقد تحلّلتِ الحياةُ من القيودِ ؟؟
في حفنتيْن من الترابِ ، وذرّتيْن من الحديدِ ؟؟

— ١١ —

أنا في الطريق إلى دمشقَ غداً ، يرافقني سهيْلُ
والشمسُ مشرقةٌ ، وملءُ أضالِعي ليلٌ ، وويْلُ !!

الويلُ مزروعٌ بكلِّ جوارحي ، ونزيلُ قلبي
والليلُ مفروشٌ بأجفاني ، وملءَ غدي ، ودرْبي

لا تعجبي وأنا المبينُ ، إذا عجزتُ عن البيانِ
اللفظُ عاصاني ، وضاقتْ عن معانيكِ المعاني

ماذا اجترحتُ ؟ وأيَّ شانئةٍ أتيتُ ؟ وأيَّ ذنْبِ ؟؟
ورفيقُ دربكِ في حياتكِ ، صارَ غير رفيقِ درْبِ ؟!

وأظنُ أيامَ الهناءِ ، عليَّ صارتْ مستحيلَهْ
وقليلةً ، وأودّ لو كانت أقلَّ من القليلهْ !!

سأذيبُ أحلامي وآلامي ، وأسكبُها قصيدَهْ
وأزِينُ فيها الشعرَ ، معصمَه ، ومفرقَه ، وجيدَهْ

سأحيلُ عمري يا رفيقةَ رحلتي في العمْر شعرا
يبقى على الأفواهِ ، والأسماعِ ، والتاريخِ ذكرى

وغداً أخفّ إلى التراب ، لأستريحَ إلى جوارِكْ
ويكونَ داري ــ بعد أن فارقتِ داري ــ قربَ دارك

حامد حسن

الدريكيش في ١٨ شباط ١٩٩٢م
١٤ شعبان ١٤١٢هـ